العرب
الإثنين 2021/09/20
السنة 44 العدد 12185

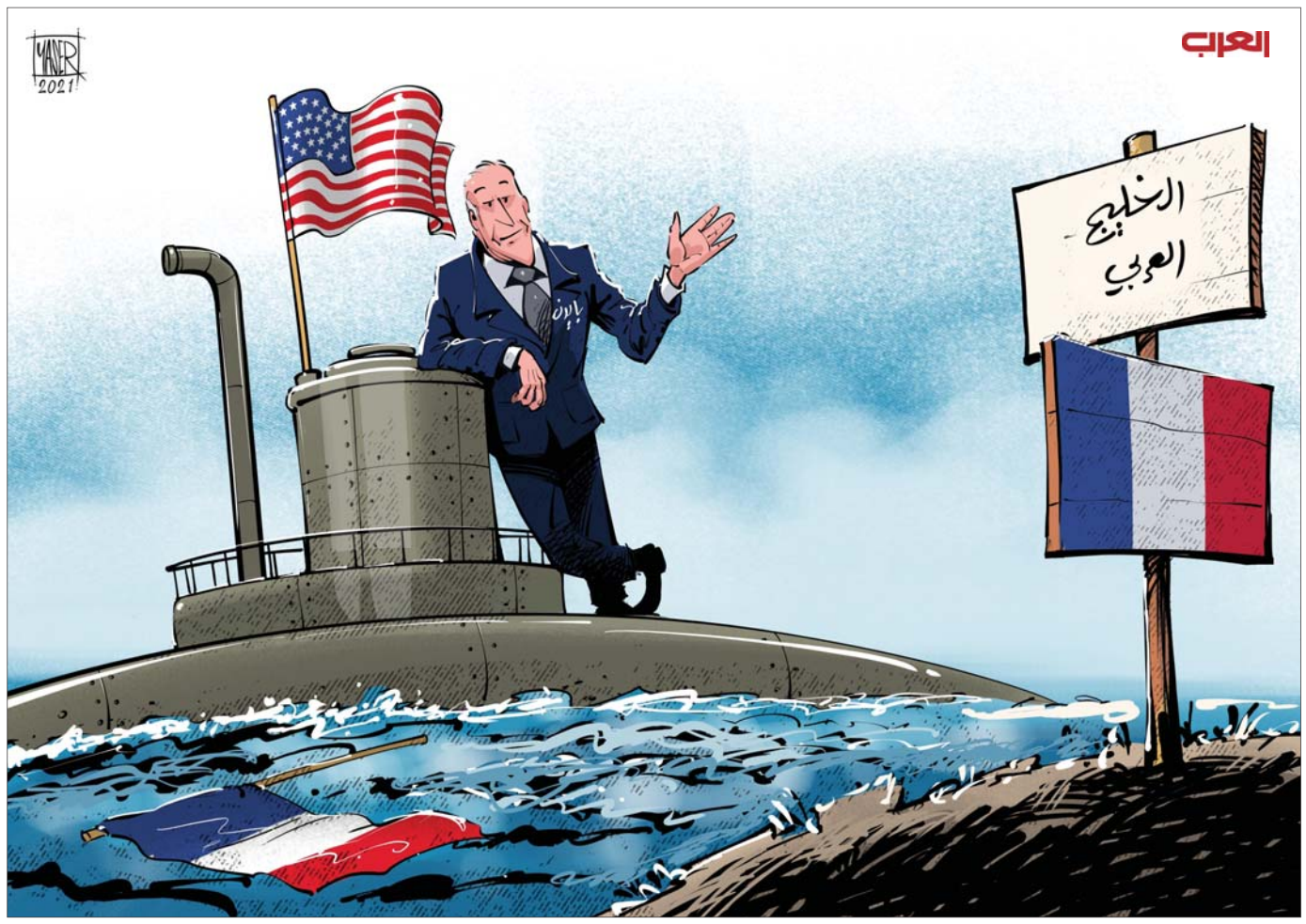

السعودية وهستيريا الكراهية الأميركية غير المضمرة

علي الصراف
كاتب عراقي

"الطعنة في الظهر" التي وجهتها الولايات المتحدة لفرنسا، تقول إن هذا البلد لم يعد يؤتمن من جانب أقرب حلفائه، فكيف يجوز أن يؤتمن من جانب السعودية؟

التحالف الثلاثي المعلن الآن بين الولايات المتحدة وبريطانيا وأستراليا لمواجهة الصين لم يُقص فرنسا من معترك نفوذ دولي حسّاس في بحر الصين الجنوبي وجنوب شرق آسيا، ليقول إنها لم تعد لاعبا دوليا يُعتد به، ولكنه زاد على ذلك بأن دفع أستراليا إلى إلغاء عقد لشراء غواصات تقليدية بقيمة 31 مليار يورو تعاقدت عليها مع فرنسا، بعدما عرضت عليها الولايات المتحدة غواصات نووية، لتقف في الواجهة مع القوة العسكرية الصينية.

باريس لم تتلق خبرا. ولا أحد تشاور معها. ولا أوجد معها تسوية أو عرض عليها ترضية قبل أن يتم الإعلان عن التحالف الجديد.

شيء يشبه تماما الصفقة السرية التي عقدتها إدارة باراك أوباما مع إيران في العام 2015.

الرياض تلقت تلك الصفقة بذهول، مثلما تتلقى باريس الآن هذه الصفقة بذهول.

للوهلة الأولى يبدو الأمر مجرد حماقة حيال حليف كبير بوزن فرنسا، يملك كل ما يملك من نفوذ داخل الاتحاد الأوروبي وأرجاء عدة من العالم.

ولكنها حماقة قائمة على هوس مرضي يتفشى في البيت الأبيض، ويمتد إلى الكونغرس والكثير من الإدارات الأخرى، حتى لكأنه حالة هستيريا عارمة وسط عالم من الفوضى، لا تعرف فيها مَنْ يريد ماذا أو على ماذا يراهن.

أعراض هذا المرض لا تظهر في مواجهة الصين وحدها. ولكنها تظهر بجلاء شديد على السعودية ودول الخليج الأخرى وكل قضايا المنطقة، لتقول إن إدارة الرئيس جو بايدن تتخبط مثل المجنون في غرفة مزدحمة، ولكنها تفعل ذلك وهي تحمل السكين.

وهناك حالة من العداء المضمر للسعودية في الولايات المتحدة تجري من تحت كل مظهر من مظاهر "التحالف" المزعوم. دافع هذه الحالة الرئيسي، حقدٌ يقوم على أن السعودية أحد أكبر مصدري النفط في العالم، وأحد أغنى الدول، وتمتلك موقعا استراتيجيا يطل على كل خطوط التجارة العالمية، وفي الوقت نفسه تعاني من عقدة الشعور بالضعف، أو تحاول أن تجعلها تبدو كذلك. وترضى أن تدفع أتاوات من أجل المحافظة على صداقة هي ليست صداقة أبدا، وتوحي بالرضى بها حتى ولو كانت قائمة على استضعاف واستهانة واستغلال شرس.

ولا بد من الاعتراف بأن قادة المملكة يدركون حجم التعقيدات التي تنطوي عليها علاقة "تحالف استراتيجي" كاذب، حتى ليمكن اعتبار إدارتها واحدة من أصعب المعادلات.

أن تحمي المملكة ظهرها من الحليف الأميركي الكاذب، أهم بكثير من أن تحمي نفسها من إيران. على الأقل لأن إيران عدو مكشوف، بينما المجانين المصابون بهستيريا الكراهية للسعودية «أصدقاء»

المجنون الذي يتخبط وهو يحمل السكين ليطعن كل من حوله، سوف يطعن نفسه في النهاية. فالصين خصم هادئ، يتمتع بقدر هائل من الاتزان، ولكنه قوي. ويعرف أن المجانين في البيت الأبيض لا بد لهم من عاصم.

هذا هو السبيل الأمثل بالنسبة إلى المملكة، ولكل جوارها الخليجي: أن تكون هادئة، وتتصرف مع هستيريا العداء لها باتزان، وأن تبني قوتها الخاصة.

يوفر المجنون، بانسحابه من المنطقة، فرصة لا تعوض لتحرير القرار الدفاعي. وفي الواقع يجب تشجيع الولايات المتحدة ليس على سحب بطاريات باتريوت وثاد وغيرها، بل على سحب سفنها من المنطقة أيضا، لكي تنقلها إلى بحر الصين الجنوبي. يجب إقناعها بأن الخطر الجسيم موجود هناك. وأنه يا ويل للولايات المتحدة لو أنها خسرت السباق مع الصين.

تحتاج المملكة بين 5 إلى 10 سنوات لكي تبني قوة دفاعية مستقلة تجمع بين الإنتاج المحلي وبين الاستعانة بمزيج من التكنولوجيات المستوردة. ويمكن الصبر على كل تهديد خلال هذه المدة.

العشرات من المليارات التي تنفقها المملكة كل عام يُمكن أن تستثمر على نحو أفضل، وأن تتحول إلى قاعدة صناعية وإنتاجية متعددة الأغراض. ففي العام 2020 أنفقت المملكة 57.7 مليار دولار على التسلح، وأنفقت نحو 65 مليار دولار في العام الذي سبقه، ومن المرجح أن تنفق هذا العام مبلغا قريبا من المعدل.

صناعة الصواريخ ليست معضلة تكنولوجية. إيران على فقرها وعجزها تحولت خلال السنوات العشر الماضية إلى قوة صاروخية تهدد بها دول المنطقة، كما تهدد الولايات المتحدة وإسرائيل. وعشرة مليارات سنويا سوف تكفل للسعودية أن تحقق التوازن الاستراتيجي المطلوب مع إيران، بل وأن تتفوق عليها بدرجة عالية.

ولو أنها أنفقت كل ما لديها من قنابل وصواريخ على الحوثي، في يوم نحس مستمر، فإن إيران سوف تفهم، في ذلك الحين، أن اللعبة لم تعد سهلة.

تحتاج المملكة مقدارا أعلى من الثقة بالنفس. وأن تتعامل مع الذين يستغلونها ويضمرون لها الكراهية، بمقدار من الصراحة يكفي لكي يفهموا أنها لا تتوقع منهم إلا طعنا في الظهر.

يتفق بايدن مع إيران أو لا يتفق، هذا شغله. السعودية عندما تبني قوتها الخاصة، وتنشئ روابط دفاعية متنوعة لخدمة مشروعها الدفاعي المستقل، لن يعود مهما بالنسبة إليها أن يقوم المجنون بمنح إيران الأموال لكي تعزز أعمالها العدوانية في المنطقة.

وفي الواقع، فأن تحمي المملكة ظهرها من هذا الحليف الكاذب، أهم بكثير من أن تحمي نفسها من إيران. على الأقل لأن إيران عدو مكشوف. بينما المجانين المصابون بهستيريا الكراهية للسعودية "أصدقاء" ولكن يملكون من الرعونة ما يكفي لكي يلحقوا بأمنها ضررا أكبر.

فهل لا تريد الولايات المتحدة أن تزود المملكة بالمعدات العسكرية التي تحتاجها؟ "طز". لا توجد كلمة أنسب من ذلك على الإطلاق.

وهل تريد واشنطن أن تتحالف مع إيران بسبب عجزها عن كبح أعمالها العدوانية؟ "طزين" أو ثلاثة، ولتذهب إدارة الرئيس بايدن إلى الجحيم بما تختار. فإيران قتلت من الأميركيين، وأضرت بمصالحهم أكثر مما قتلت من السعوديين أو أضرت بمصالحهم.

وهل يجرؤ الرئيس بايدن، بحماقته التي فاقت حماقات سلفه، بأن يطعن فرنسا والسعودية والإمارات في الظهر؟ يجب تشجيعه على المزيد. وهو منهج على أي حال. ذلك أن البعبع الذي يخشاه، موجود في الصين.

ولكن السعودية تحتاج أن تضع فاصلا ختاميا بين عهدين. الأول، الذي يقوم على قبول الجمع بين التحالف والكراهية المضمرة (وهي غير مضمرة الآن). والثاني الذي يقوم على استقلال القرار الاستراتيجي ببناء قوة دفاعية خاصة.

ولدى السعودية حليف يمكن أن تتكئ عليه بثقة مطلقة، لبناء قوة مشتركة، أو قوة تتكامل مع ما تبنيه. الإمارات هي هذا الحليف، الذي ما بعده حليف تجدر الثقة به.

الهدوء وتوازن العلاقات الاستراتيجية وبناء القوة الذاتية، هو السبيل.

ما طبقته مصر لا يصلح تكراره في المستقبل

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

كتبت هنا الجمعة الماضي مقالا بعنوان "هل هناك خطة مصرية للتعامل مع التحديات" ووعدت في نهايته باستكماله بمقال آخر، لأن الآليات التي استخدمت في التعامل مع أوضاع معقدة تلت خروج مصر جريحة من ثورتين في غضون عامين ونصف عام يصعب تكرارها في المستقبل بعد أن استردت الدولة جانبا كبيرا من عافيتها.

طبق النظام المصري خطته لاسترداد الهيبة والقوة والأمن، ونجح في السيطرة على مقاليد الأمور، وتبني رؤية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية من منظور اعتقد أنه يكفي لتخفيف الأعباء ويمنح لأجهزة الدولة ديناميكية عالية للتحرك للأمام وقبلت بها قطاعات عديدة من المواطنين ووجدت تفهما لدى شريحة من المتابعين.

هناك فئة ترى أن ما جرى استخدامه في الماضي لن يحقق الثمار ذاتها في المستقبل، فالإنسان لا ينزل نفس النهر مرتين، لأن جريان المياه يتغير ومزاج الإنسان نفسه لا يبقى على حاله طوال الوقت، الأمر الذي يمثل دليلا على ضرورة أن تتمتع الخطة المصرية الخفية بدرجة عالية من المرونة في التعامل مع التحديات، وهو أيضا الاختبار الذي يؤكد وجود رؤية متماسكة لكل مرحلة أم أن التعاطي يتم بصورة عشوائية.

شغلت مسألة الخطة بال كثيرين من المهتمين بالشأن المصري، فبعض الأدلة تدعم وجودها حيث حقق النظام الحاكم أغراضه في مجالات استهدفها داخليا وخارجيا، وبعضها أوحى بأن التعامل يتم بالقطعة وحسب المستجدات، وربما في معظمه ينحصر في رد الفعل، ما ينفي العمل وفقا لخطة استراتيجية المرحلة القادمة.

في كل الحالات تحتاج الفترة المقبلة رؤية مغايرة لأن المبررات التي ساقتها القاهرة للقبول بالكثير من الإجراءات الاستثنائية لم تعد موجودة ويصعب الاقتناع بها عمليا.

جرى تفسير استخدام القبضة الأمنية بأن الأوضاع غير مستقرة والإرهاب يحيط بالدولة من جوانب متعددة والجماعات المتطرفة تنشط في سيناء شرقا وتتسرب من الحدود الغربية مع ليبيا، وبقايا المتشددين وجماعة الإخوان يعبثون في الداخل وقواعده الشعبية، كل هذه المظاهر تم القضاء عليها الآن وانتفت الروافع التي استندت إليها.

بالتالي فالخطاب الذي جرى استخدامه في التبرير لن يكون له صدى كبير أو تفهم لاحقا، بل توحي العودة لاستخدامه بأن الإرهاب مستمر، ما يتناقض مع التقارير التي قالت بتراجعه إلى الحدود الدنيا، وحتى مسألة درء الخطر قبل وقوعه عملية مهمة لكن تقتصر على من يمثلونه بشكل حقيقي، بما يستوجب تخفيف الصرامة إلى المستوى الطبيعي، فالعمل بالخطة الأمنية السابقة يشكك الناس في نجاحات من قاموا بها.

يمثل هذا البعد أحد الملامح التي تشير إلى أن الخطوات التي اتخذت من قبل فرضتها تطورات معينة وليست شأنا دائما، لأن الديمومة في هذه الحالة تستدعي مشاهد الفترة الانتقالية التي يحلو للبعض الحياة في كنفها لما توفره من إجراءات طارئة.

كما أن التحديات الإقليمية والنماذج العربية السيئة بدأ بعضها يلملم جراحه أو في طريقه إلى تسويات سياسية، تزامنا مع إحكام الأمن المصري سيطرته على جميع المنافذ البحرية والبرية، وتراجعا في التهديدات الخارجية أو تلاشيها، ما يمنح أجهزة الأمن قدرة على التقاط أنفاسها وخفض درجات الاشتباه التي تتواءم مع مراحل استقرار الدول أو الطامحة إلى ذلك.

تكمن المشكلة في اعتقاد راسخ داخل الوجدان العام وسائد لدى كبار المسؤولين بشكل خاص، مفاده أن المواطن المصري يحتاج لممارسة ضغوط عليه طوال الوقت لمنع انفلاته، فإذا وجد تساهلا سيكون من الصعوبة ضبط سلوكه، وما لم تتغير هذه القناعات سوف تتواصل حلقات الصرامة الأمنية المفرطة التي عززتها طقوس الفترة الحرجة خلال السنوات الماضية، وتفقد أجهزة الدولة قدرتها على الإدارة في أجواء إيجابية.

تحتاج فترات الاستقرار والبناء رؤية تعبر عن المضمون الذي يحويه شعار الدولة المصرية "الجمهورية الجديدة" حيث يشي بأن ثمة خطة تحكم تصرفات كافة الأجهزة، تعكس المعاني والمضامين الكامنة خلفه، في مقدمتها النهج الذي يحكم التصورات المستقبلية ويدعم فكرة التغيير المتوقع في مصر ويتم التبشير به حاليا.

تؤكد بعض التطورات أن هناك معالم صاعدة تظهر في محكات اقتصادية واجتماعية بشكل واضح وتحتل أولوية في خطاب رئيس الجمهورية لكن قسماتها لا تظهر على المستوى نفسه في النواحي الأمنية والسياسية والإعلامية التي تحتاج لاستدارة كاملة.

ما كان مقبولا في المحتوى السابق يصعب تسويقه في اللاحق، فمن المتوقع أن تنتقل غالبية أجهزة الدولة للعمل من مقراتها في العاصمة الإدارية بشرق القاهرة، وهي مناسبة تصلح للإعلان عن تفاصيل الخطة الجديدة والمكونات التي تنطلق منها وأبرزها معايير متينة تعتمد عليها الدولة في مرحلة الاستقرار والإعلان عن غلق ملف الفترة الانتقالية وعوراتها حيث جارت ملامحها القاتمة على بعض مناحي الحياة.

يبدو أن هناك جناحين يتجاذبان مستقبل مصر، أحدهما يريد مواصلة الطريق دون إدخال تعديلات مطلوبة خشية أن يؤدي التغيير في نمط الإدارة المعتاد إلى هزة في دواليب الدولة التي ارتاح الكثير من القائمين عليها لصيغة المركزية المبالغ فيها.

وتبعد محتويات هذه الطريقة الجامدة الصف الأدنى من كبار الموظفين عن تحمل المسؤولية، إذ يقبع هؤلاء داخل ما يسمى بالدولة العميقة التي تنسجم مفرداتها مع تطلعاتهم المادية العالية وطموحاتهم غير المحدودة في التدرج الوظيفي.

يطالب الجناح الثاني بتغييرات هيكلية تعبر عن مصر الحديثة الراغبة في أن يكون لها مكان تحت الشمس ودور واضح على المستوى الإقليمي يناسب تاريخها، وتدفع عناصره نحو التعجيل بإصلاحات شاملة في المجالات السياسية والإعلامية والأمنية وعدم الاقتصار على ما تحقق من نجاح في الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية.

بدأت تظهر ملامح جناح ثالث يتبنى فكرة الخلط بين الجناحين السابقين، وهو بقدر ما يعبر عن انفتاح جزئي يحوي ترددا وارتباكا قد يحطم التوجهات الإصلاحية التي تحتاج إلى خطة جريئة وتخلٍ تامّ عن تقاليد الفترة الماضية ومكوناتها التي وقفت عائقا أمام الإصلاح، فهناك فرصة أمام النظام لتغيير وجه الحياة في مصر بصورة متكاملة، قد يحرم ضياعها أجيالا من رؤية بلدهم في مصاف الدول الصاعدة.

باتت الكرة الآن في ملعب الرئيس عبدالفتاح السيسي الذي أشار أكثر من مرة إلى أن ما يبنيه في مصر يخص الأجيال القادمة كدليل على أنه يملك خطة، لذلك يحتاج هؤلاء منه إلى الإعلان عن رؤية إصلاحية محددة تمهد الأرض لعبورهم نحو المستقبل، فما هضمه السابقون وتعايشوا معه يصعب تكراره أو القبول به من اللاحقين.